

لم يكن حفظ القرآن جميعه شائعا فى عهد النبى كما شاع بعد، فكان حفظ القرآن موزعا على الصحابة، قال أبو عبد الرحمن السلمى: حدثنا الذين يقرأون القرآن كعثان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا فيها من العلم والعمل كان يحفظ ولا ينتقل من آية إلى آية حتى يفهم. فى القرآن آيات كثيرة محكمة واضحة المعنى، وهى التى تتعلق بأصول الدين وأصول الأحكام، وخاصة منها الآيات المكية التى تدعو إلى أصول الدين كسورة الأنعام؛ وهذا النوع من الآيات يستطيع فهمه جمهور الناس ولا سيما من كانوا عربا بسليقتهم؛ وفى القرآن آيات غامضة هى التى سميت متشابهة، ولم يصل إلى معرفتها إلا الخاصة. وكان من الصحابة على العموم أقدر الناس على فهم القرآن، ومع هذا فقد اختلفوا فى الفهم على حسب اختلافهم فى أدوات الفهم، ١ - أنهم كانوا يعرفون العربية على تفاوت فيما بينهم وإن كانت العربية لغتهم، فمنهم من كان يعرف كثيرا من الأدب الجاهلى، ويستعين بذلك فى فهم مفردات القرآن، ويشاهد الأسباب التى دعت إلى نزول الآية، ومعرفة أسباب التنزيل من أكبر ما يعين على فهم المقصود من الآية، والجهل بها يوقع فى الخطأ. ٣ - كذلك اختلافهم فى معرفة عادات العرب فى أقوالهم وأفعالهم، فمن عرف عادات العرب فى الحج فى الجاهلية استطاع أن يفهم آيات الحج أكثر ممن لم يعرف، وهكذا وكذلك الآيات التى وردت فى التنديد بمعبودات العرب وطريقة عبادتهم لا يكمل فهمها إلا لمن عرف ماذا كانوا يفعلون؟ ٤ - ومثل هذا معرفة ما كان يفعله اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول الآيات، ففيها إشارة إلى أعمالهم ورد عليهم، وهذا لا يتم فهمه إلا بمعرفة ما كانوا يفعلون، من ذلك ونحوه كان الاختلاف بين الصحابة فى الفهم، وكان التابعون ومن بعدهم أشد اختلافًا. هناك تفسير يسمى التفسير بالمنقول ويعنون به: حتى كانت كتب التفسير المؤلفة فى العصور الأولى مقصورة على هذا النحو من التفسير. يعرف المفسر كلام العرب ومناحيهم فى القول، ويعرف الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد فى مثله من شعر الجاهلى ونحوه، ويقف على ما صح عنده من أسباب نزول الآية مستعينا بهذه الأدوات ويفسرها حسب ما أداه إليه اجتهاده، مثل كثير مما ورد عن ابن عباس وابن مسعود، فهذا الاختلاف نتيجة اختلاف فى الرأى، لا نتيجة اختلاف فى المنقول، وقد اختلفوا فى معانى الآيات خلافاً فى معانى الألفاظ. فإذا سمعوا قصة كلب أصحاب الكهف قالوا: ما كان لونه؟ وإذا سمعوا «فقلنا اضربوه ببعضها» تساءلوا: ما ذلك البعض الذى ضربوا به؟ وما قدر سفينة نوح؟ وما اسم الغلام الذى قتله العبد الصالح فى قصة موسى معه؟ وإذا تتلى عليهم «فخذ أربعة من الطير» قالوا: ما أنواع هذا الطير؟ وما هى الكواكب التى رآها يوسف فى منامه؟ وكذلك إذا سمعوا قوله تعالى فى قصة موسى مع شعيب سألوا: أى الأجلين قضى موسى؟ وهل تزوج الصغرى أو الكبرى؟. فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم. وأكثر من روى عنه منهم: على بن أبى طالب، وإذا نحن ألقينا نظرة على ما روى من التفسير عن ابن عباس وغيره وجدنا منبعه هو الأشياء الثلاثة التى ذكرناها قبل: نقل عن النبى أو رواية حوادث وقعت أمامهم توضح معنى الآية، واجتهادهم فى الفهم معتمدين على الأدب الجاهلى ومعرفتهم بلغة العرب والعادات التى كانت فاشية فى الجاهلية وصدر الإسلام،